

مفهوم السياسة والأخلاقيات السياسية عند المفكر مالك بن نبي : - نحو رؤية مستقبلية لبناء كمنوليت إسلامي -

د. بغداد باي نعيمة
كلية الحقوق والعلوم السياسية
جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

يختلف تعريف السياسة من مدرسة لأخرى، كما أنه ليس هناك إجماع من قبل العلماء على صيغة موحدة لمفهوم السياسة، وهذا راجع للموقف النظري أو الفكري الذي تنطلق منه التعريفات ذاتها، في إطار المدرسة الغربية أو المدرسة العربية الإسلامية. حيث يرى مالك بن نبي أن العالم الإسلامي أقتبس مفاهيمه السياسية الحديثة من الغرب ، من دون أن يتحقق من صحتها و تماشيتها مع قيمه و شخصيته وواقعه الاجتماعي و أسلوب حياته ، وهو يرى أنه كان الأولى بالعالم الإسلامي أن يعود إلى أصوله و تراثه الإسلامي لينهل منها ،و يعتبرها أفضل بكثير مما هو عند الغرب في حال تطبيقها تطبيقا صحيحا .

1- مفهوم السياسة عند مالك بن نبي :

يرى مالك بن نبي، بأن تعريف السياسة : "عمل تقوم به الدولة، منظم ومحدد بميثاق وطني ، ووقيته من أعمال التخريب1

،ينطوي على ثلاثة نقاط أساسية تتمثل في : أن يكون للدولة ما تعمله ،أي عمل الدولة ، أن تجعل عملها في ميثاق وطني أو دستور، وأن تجد طريقة لوقاية هذا الدستور من أعمال التخريب .

إن هذا التعريف بالنسبة لمالك بن نبي هو تعريف غير كافي ، وهو يعتبر النقاط الثلاث غير كافية في التعريف، بل هي مجرد مقاييس تميز بها السياسة عن السياسة المزعومة التي تركز على تقديرات سافلة و تطبيق مشبوه ، فهو يعتبرها شروط ضرورية لكن غير كافية . فبن نبي يرى أن السياسة لا تستطيع أن

تكون العمل الذي تقوم به الدولة أو الأمة كلها إلا بقدر ما تكون مطبوعة في عمل كل فرد منها، أي الإجماع الذي يعتبره المقياس الجوهرى الذي يميز السياسة الناجمة عن السياسة الفاشلة، ولذلك نجده يربط مفهوم السياسة بعدة مصطلحات ومفاهيم، كالأيدولوجية، الثقافة، العقيدة... الخ، و يعتبرها شروطا ضرورية لتعريف السياسة، وستتطرق إلى هذه المصطلحات حتى تكتمل لنا الصورة كاملة عن مفهوم السياسة عند مالك بن نبي، و تتمثل هذه

المصطلحات فيما يلي :

أ-الإيدولوجية :

إن الإيدولوجية هي من بين الشروط التي يضعها بن نبي للتعريف الصحيح للسياسة، وهو أن تكون للدولة إيدولوجية معنية، وهذه الإيدولوجية لا تطرح على أنها مجرد اقتراح تستحسن قليلا أو كثيرا في مجال الأفكار، بل بوصفها مشروعا حيويا، به يكون للسياسة تأثير حقيقي على الواقع المحسوس في الوطن(2). والإيدولوجية تعني العنصر الذي يحقق جمع وتحريك الطاقات الاجتماعية أو تحقيق الوحدة في النشاط الاجتماعي بواسطة إدماج النشاط الفردي "للشخص" الذي صاغته الثقافة في النشاط الاجتماعي لإقامة الحضارة (3)، وإن العمل الجماعي يختلف بالطبع عن العمل الفردي، إذ أن العمل الجماعي هو العمل الذي يتم إنجازه وفق مبرر واحد ومنهج واحد من طرف الأشخاص المشتركين في إنجازه، وكي يتم إنجاز هذا العمل الجماعي لابد من الإيدولوجية بوصفها إطارا يحرك الطاقات الاجتماعية للأفراد من خلال توفيرها الباعث الواحد والمنهج الواحد (4).

أي أن السياسة تؤثر على الأفراد والواقع المحسوس من خلال الإيدولوجية التي تتبناها، وهذا التأثير على الأفراد والواقع المحسوس لن يكون ناجحا إلا عن طريق عوامل يمكنها التأثير في الواقع، ومن هذه العوامل أن يتجانس عمل الدولة مع عمل الفرد، والتجانس بينهما لا يتحقق إلا إذا تحقق أولا في ضمير الفرد، لأن هذا التجانس هو في أساسه عبارة عن مصالح حيوية

مشتركة بين الدولة والفرد، ومسلمات متفق عليها بين جمهور من الناس، يكون جسم الأمة وإجماعها (5)، فإذا تضاربت هذه المصالح أو اختلفت هذه المسلمات، فلن تكون السياسة سوى دكتاتورية، وبالتالي لا تستطيع أن تنسجم مع مصائر الأمة، ولا أن تحقق أهدافها. إن استحالة انسجام الدولة مع مصائر الأمة ينتج عنه رفض الأمة لهذه السياسة رفضاً يفصل الدولة معنوياً عن الوطن، وثانياً عجز هذه السياسة في التأثير على نشاط كل فرد، وبالتالي عجزها عن تحريك الطاقات الاجتماعية الموجودة في اتجاه معين نحوى هدف محدد يدركه أغلبية المواطنين، ومن هنا نستنتج أن التعاون بين الدولة والفرد على جميع الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية هو العامل الرئيسي في تكوين سياسة تؤثر حقيقة في واقع الوطن. فإذا لم تتعاون الدولة مع الفرد على جميع الأصعدة، فإن القطيعة المعنوية سوف تعزل الدولة عن المواطن، وتشل الطاقات الاجتماعية و تشيبتها لتكون نتائجه على عمل الدولة وعمل الفرد في نطاق التعاون الذي ذكرنا أنه يتحقق في ضمير الفرد، ويجعل هذا الضمير موضوعاً من ناحية، وحقماً من ناحية أخرى.

فالسياسة التي تريد تلقين مسوغاتها وأهدافها لهذا الضمير (ضمير الفرد)، عليها أن تجعله حكماً يصدر بكل حرية حكمه في مسوغاتها وأهدافها. ولربما استطاعت السياسة أن تأخذ هذا الحكم على حين غرة في وقت ما، خصوصاً حين ترفع الشعارات وتصرح بالوعود المغرية، لكن كما يقول رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السابق "أبراهام لنكولن" : "إن التغير بفرد ممكن دائماً، والتغير بشعب ممكن بضعة أيام، إلا أنه غير ممكن كل يوم". (6)

فالإيديولوجية التي لا تتضمن إلا مصالح عاجلة فإنها وإن كانت محترمة، لن تفتح طريقاً لغير سياسة قصيرة المدى ومحدودة على قدر الشعارات التي رفعتها. (7)

وعلى هذا فوظيفة الإيديولوجية هي العمل التغييري في تجميعها نشاط الأفراد وصياغته في نشاط مشترك، عن طريق ما تحويه من مبررات، ودوافع تعطي النشاط فاعليته، والمنهج الذي يوحد الطاقات ويحدد مسارها التاريخي،

والإيدولوجيات ذات علاقة وثيقة بالثقافة، فالثقافة تصوغ شخصية الفرد والإيدولوجية تدمج نشاطه في النشاط الاجتماعي.(8)

و الإيدولوجية تتطلب أطرافاً أخرى، تتضمن الوحدة الضرورية بين عمل الدولة وعمل الفرد ولانجاز مهمات بعيدة تركز على الثقة والبطولة، وهذه الأطراف هي التي تعطي حسب جوهرها القيمة الجديدة أو الحقيرة للسياسة أمام التاريخ، والجوهر هذا هو "العنصر الأخلاقي" وهو متصل بالعنصر النفسي، وبهذا يعتبر العنصر الأخلاقي أو العقيدة شرط ثاني من شروط تعريف السياسة.

ب-العقيدة والأخلاق:

إن الدين عند مالك بن نبي هو أساس كل مشروع تغييري، وهو يهتم به من حيث وظيفته الاجتماعية في صياغة الشخصية الحضارية، وبناء العلاقات الاجتماعية، والدين القادر على التغيير حسب هو الدين السماوي، فوظيفة الدين الذي تنبثق منه الأخلاق، تتحقق في شكل تركيب يهدف إلى تشكيل قيم تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني ينطبق على مرحلة معينة للحضارة، وهذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من الوقت وقتاً اجتماعياً مقدراً بعدد ساعات العمل، ومن التراب الذي يقدم في صورة فردية مطلقة غذاء الإنسان، مجالاً مجهزة مكيفاً تكييفاً فنياً يسد حاجات الحياة الاجتماعية تبعاً لظروف عملية الإنتاج.(9) فالفكرة الموجهة لسياسة تستطيع مواجهة أهوال التاريخ، لا بد لها من جهد مدعوم بعقيدة لا يعتريها الشك أبداً، فحسب مالك بن نبي، أن الجهد المدعوم بمصلحة عاجلة، قد يتولى ويعرض المجتمع للانفرادية أي لأصناف التمزيق، فالتعاون بين الدولة والفرد قصد إنجاز مهام عظمى، يجب أن يركز على عقيدة راسخة، فإذا تجاهلت الدولة عامل العقيدة والأخلاق المنبثقة عن العقيدة، فإن التعاون بينها وبين المواطنين يصبح مبتوراً ولن يكون لسياساتها تأثير حقيقي في واقع البلاد.

إذن التعاون بين الدولة والفرد، لا بد له من جذور في عقيدة تستطيع وحدها أن تجعل ثمن الجهد محتملاً مهما كانت قيمته لدى صاحبه، فيضحي هكذا بمصلحته أو حتى بحياته في سبيل قضية مقدسة في نظره. وأكبر مثال على ذلك حسب بن نبي هو مثال شهداء بدر، فهذه الفئة القليلة في أعين الكفار في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم أقل عدة وعتادا، كانت المتفوقة بالإيمان الذي يملأ قلوبهم والتقوى التي تسكنه، فرأى أولئك المؤمنون أن التضحية بالنفس والمال في سبيل نصره دولة الإسلام والمسلمين، وكذلك يعطي مثالا آخر على ذلك هو إفلاس الاستعمار في المستعمرات الذي كان محتوما، طبقا لقانون التعاون الضروري الذي كان مستحيلا بين الاستعمار والإنسان المستعمر، فبعد أكثر من قرن ونصف من الاستعمار الفرنسي للجزائر، حيث حاول الاستعمار فصل المسلم عن إسلامه، إلا أنه باء بالفشل سواء بمحاولاته ذات الطابع اللاديني أو ذات الطابع الديني الهادف إلى التمسيح، فلقد كان الإسلام الحصن المنيع الذي فشلت تحت أسواره جميع المحاولات التي استهدفت سلب الشعب الجزائري شخصيته على مدى قرن من الزمن، كما كان الإسلام الحافظ للإيديولوجي الرئيسي الذي دعم جهده البطولي خلال الثورة. فالدين هو الذي يمنح للفرد الدافعية والحركة التي تتجسد في فعل اجتماعي يعطي ثمرته في جميل المجالات، لكن الدين يفقد فاعليته بحسب الإنسان الذي يحمله فمثلا الدين الإسلامي فقد فاعليته من خلال إنسان "ما بعد الموحدين" (10)، الإنسان الفاشل على جميع الأصعدة الذي ضيع الدين والدنيا معا.

ج- الشقافة:

إن الإيديولوجية عند مالك بن نبي ليست إلا سهم يشير إلى هدف ويحدد بعض الاتجاه، وقد يكون أحيانا هذا الهدف تحطيمي موجه لانتحار أمة، مثل

الإيديولوجية الهتلرية التي استطاعت أن تعطي توترا ودفعاً، وصلت درجة فاقت طاقة البشر، لكننا نعلم من ناحية أخرى أية هاوية سحيقة أَلقت (11) ، فلقد كان هتلر يريد أن يفرض على العالم ألف عام من السلم الجرمانى، أي ألف عام يرجع فيها الضمير العالمى إلى الوراء.

فالسّياسة إذن تقتضى أكثر من ذلك، إذ لا يكف أن تحدد عمل الدولة في اتجاه معين، وأن يكون ثمة جهاز رقابى ضرورى لمتابعة عمليات التنفيذ، وجهاز لحماية المواطن من اعتداء الدولة نفسه، كما لا يكف أن تمنح هذه السّياسة التوتّر الضرورى للطاقت الاجتماعىة(الإيديولوجىة)لتبلغ هدف معين. إذ لا بد أن يكون الهدف نفسه متطابقاً مع التطور الطّبيعى للأمة، ومع الظروف العامة التى تحيط بهذا التطوير، وأن يكون فوق ذلك متطابقاً مع مصير الإنسانىة كلها(12) ، فإذا كانت السّياسة تفقد فاعليتها، إذا انفصلت عن ضمير الأمة، فإذا ما انفصلت عن الضمير العالمى، فإنها تضيف إلى العالم خطراً فوق الأخطار الذى تهدده. و انسجام السّياسة مع تطور الأمة والظروف المحيطة بتطورها، يطرح علينا مشكلة "الثقافة"، أما إذا وسعنا هذا الانسجام إلى ما يقتضيه وضع عالمى، فإن التوسع هذا لا يزيدنا إلا تركيزاً على النتيجة المستخلصة من نظرتنا الأولى، أي أن السّياسة ترى شرطاً ضرورياً آخر لتعريفها وسلامتها هو شرط الثقافة.

وتعرف الثقافة على أنها: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيّم الاجتماعىة التى تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لاشعورياً، العلاقة التى تربط سلوكه بأسلوب الحياة فى الوسط الذى ولد فيه، وهى على هذا، المحيط الذى يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته" ويشبه مالك بن نبي الثقافة، بوظيفة الدم فى جسم المجتمع هذا من الناحية التاريخية، أما من الناحية التربوية فينظر إليها بوصفها منهجاً للتربية، يتيح إعادة بناء الشخصية ليسهم بفاعلية فى بناء الحضارة، وهى من هذه الزاوية الرابطة الأخلاقية والجمالية والعقلية والتقنية التى تربط أفراد المجتمع، حيث يقول بن نبي: "أنها مجموعة تراكيب أربعة هي: المبدأ الأخلاقى والدوق الجمالى والمنطق العملى والصناعة"، فكل عمل ثقافى يجب أن يحتوى

على هذه العناصر الأربعة التي تحرك الإنسان باتجاه المجتمع، بتحويله من فرد إلى شخص يسهم في بناء دولته وسياسة بلاده.

إن وظيفة الثقافة هي صياغة الفرد وتكييفه بدوره في صنع سياسة وطنه بما تتيحه له من معطيات اجتماعية ومبادئ أساسية أخلاقية وعلمية، والشخص هو الفرد الذي تمت صياغته وفق المناخ الثقافي الذي أنشأته الفكرة الدينية، فتغيرت صفاته البدائية التي تربطه بالتنوع إلى نزعات اجتماعية وسياسية... الخ تربطه بالمجتمع. ولكي يبين بن نبي أهمية الثقافة في السياسة أعطى مثالا عن نابليون الذي لم يكن أثناء إقامته في موسكو، أي في أحلك أيامه، منكبا على خرائط تحركاته العسكرية فحسب، بل إنه انكب أيضا على إتمام القانون الذي وضعه في البداية، وشغلته أيضا قضية أخرى هي قضية تنوير شوارع باريس (13)، فهل كنا نتصور إتماما كهذا لو فصلنا السياسة عن الثقافة؟! وهو يرى أن المدرسة، هي التي تهتم بنشر الثقافة، ورفع اللاثقافة، ولكن رغم أنها الوسيلة الرئيسية لصنع الثقافة، أي إعطاء البعد الوطني والعالمي للسياسة، فإنها غير كافية ويرى أنه يجب إعادة النظر في المدرسة، لأنها ليست حسبه مكان مجهزة بمقاعد وصبورة فقط، بل هي قبل ذلك المعبد الذي سيشعر فيه الضمير بالقيم التي تكوّن تراث الإنسانية، فيقدر ما تستعيد المدرسة معناها الأصيل، تستطيع القيام بدورها الثقافي، وبالتالي دورها السياسي، إذ السياسة حينئذ تكتسب بعدا وطنيا وعالميا، بفضل ما تهبه لها الثقافة من تفتح على القيم التي اكتسبها الفكر الإنساني عبر آلاف السنين.

2- الفرق بين السياسة و"البوليتيك":

إن العديد من الأطروحات تحاول أن تخلط بين السياسة كعلم له قواعده وأخلاقياته ومنهجيه العلمي، وبين الممارسات الاستبدادية والأخلاقية، ولتفادي ذلك يرى بن نبي أنه يجب نفرق بين السياسة ومصطلح "البوليتيك". (14)

إن السياسة لها وظيفة متميزة عند الدول التي تعرف ماهيتها، أي تعرف كيف توظفها لتجسيد مبعثياتها، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال تغذيتها بأفكار ونظريات ورؤى ناضجة تتأسس بالاعتماد على المرجعيات الفكرية والمدارس المذهبية، التي تطبخ وتنضج في مخابر الدراسات الإستراتيجية والمؤسسات العلمية، وكذا في هيئات البحث المختلفة، فأمريكا مثلاً تفوقت على العالم كله والعالم العربي والإسلامي خاصة، بفضل اعتمادها على فكر سياسي قائم على دراسات ومرجعيات فكرية وعلمية، كانت بمثابة المرشد الحقيقي لتجسيد مشاريعها خاصة على المستوى الدولي. فالسياسي في الولايات المتحدة الأمريكية، يصبح مجرد منقذ ليس إلا، بينما المفكر والمثقف يغدو بفضل هذا السلوك، مهندساً للسياسات يقف وراء الستار، أمثال هنري ر. لوك في كتابه "القرن الأمريكي" وفوكوياما "نهاية التاريخ"، وهنتجتون في "صراع الحضارات" و تشومسكي وغيره من المفكرين الأمريكيين الذين حضّروا الأرضية الفكرية للسياسة الأمريكية. وعلى عكس السياسة العلمية الصحيحة المبنية على قواعد علمية ومرجعيات فكرية ثابتة، ظهرت "البوليتيك" وهي صورة مزيفة للسياسة، يقول مالك بن نبي: "البوليتيك هي الصورة المزيفة للسياسة، وهي لا تتحدد كشيء له مدلول في عالم المفاهيم ولكنها ذات تاريخ طويل في بلادنا...". (15). فالبوليتيك هي عندما يرتفع الصخب في السوق وتكثر حركات اليد واللسان، وعندما لا يسمع الشعب غير الحديث عن "الحقوق" دون أن يذكر بواجباته، وعندما يشرع بالطرق السهلة الناعمة، فتلك هي البوليتيك، فالسياسة هي استبطان القيم، بينما "البوليتيك" هي قذف مجرد الكلمات. (16)

فعلى عكس السياسة التي تشترط العمل السياسي الواضح وتجسده ميدانياً في شكل نصوص دستورية أو ميثاقية أو قانونية و حماية الإنسان البسيط من الإجحاف والاستبداد والتلاعب بالقوانين والأعراف، نجد البوليتيك تعني الفساد والاضطهاد والوسوسة والتسويس الخ (17)، و البوليتيك بمفهومها هذا، أي

الاستغلال والقهر والظلم تنطبق أكثر فأكثر على بلادنا العربية والإسلامية، هذه البلاد التي لا تقوم سياستها على دراسات علمية وفكرية، ولا تعتمد على المفكر والمثقف، ولا تسعى لاستغلاله، بل تعتبر البحث العلمي أكبر حزب معارض، فالسياسي في البلاد العربية والإسلامية، لديه عقدة من مراكز البحث العلمي، ومن هيئات الدراسات المتخصصة في العلوم السياسية، لذلك نجد أن برامجها السياسية مرتجلة وغير عميقة.

لذلك فالعمل السياسي الصحيح القائم على أسس السياسة يتميز ب: تصور العلم: أي تحديد السياسة بوضوح، تصور وسائل تحصين هذا العمل من الإحباط حتى لا يبقى حبرا على ورق في نص الدستور أو الميثاق أو يبقى مجرد لائحة، تصور نص الدستور أو الميثاق، وأخيرا تصور جهاز يحفظ المواطن من إجحاف العمل. فالنسبة للشرط الأول، شرط العمل، يقول "شو إن لاي": إن سياستها لا تخطئ لأنها علم، فبن نبي يدرك أن العلم يضمن للسياسة على الأقل ألا تصير "بوليتيكا". أما الشرط الثاني فإن على الدولة أن تدافع عن عملها، أي عن سياستها، عن طريق وضع أجهزة حماية ووقاية ومراقبة، لأن الرواسب التي خلفها الاستعمار، وخلفتها "البوليتيكا" في الوطن، تجعل من الصعب تنفيذ القانون، هذا إن لم تعرضه للازدراء، والبيروقراطية في الأوطان العربية والإسلامية لأكثر دليل على ذلك. وفيما يخص الشرط الأخير، فأحيانا من يكون بيده القانون لكي ينفذه، أو حتى بعض المصالح المسندة إليها مهمة تنفيذ القوانين، تتخذ من هذا الامتياز، أداة لقضاء أغراضها ومصالحها الخاصة، والويل للمواطن الذي يرفض الخضوع للبوليتيكا، وهذا ما يجعل المواطن الذي يكون تحت حماية هذا الاختلاس، أن يضعه ضد النظام أو الدولة بأكملها، وخير دليل على ذلك العشرية الدموية التي مرت بها البلاد الجزائرية وكثير من البلدان الأخرى تمر بها اليوم.

فهذه الشروط هي أقل ما تتطلبه السياسة من أجل تعريفها تعريفا علميا صحيحا قائما على أسس علمية صريحة ومرجعية فكرية موضوعية، وبذلك تتميز

عن البوليتيك، والأبعد من ذلك هو الاعتراف بالأخطاء حيث يقول: "البينين": عن كل الأحزاب الثورية التي أخفقت حتى الآن، قد أخفقت لأن الغرور قد استولى عليها، ولم تكن تقدر ما يكون قوتها، كما كانت تخشى الحديث عن جوانب الضعف فيها، أما نحن فلن نحقق لأننا لا نخشى الحديث عن ضعفنا، ونتعلم كيف تغلب عليه" (18).

3-تأثير الأخلاق في السياسة عند مالك بن نبي:

إن الانفصال بين العلم والضمير، بلغ غايته في نهاية القرن التاسع عشر، عندما زعم العلم بعد اكتشافاته المبهرة، في ميدان البخار، والكهرباء، أنه يستطيع وحده الاضطلاع بسائر المسؤوليات في العالم، وعندها رأت بكل بساطة البلاد المتحضرة بأنها تستطيع أن تؤمنه على مصيرها، ورطت بفضل تفوقها العلمي، الفكري الإنساني كله في هذا الاعتقاد الساذج، ومنذ ذلك الحين أصبح العلم يسير في طريق، والأخلاق في طريق آخر (19).

فالعلم إذا تجرد من الأخلاق، فإنه حتما يجر إلى وضع اقتصادي مناقض للأخلاق، سواء كان ذلك في الإطار الوطني أو في الإطار الدولي، ومما تجب ملاحظته، أن الاقتصاد ليس سوى إسقاط البعد السياسي على نشاط إنساني معين، فبقدر ما تبقى السياسة مرتبطة بمبادئ أخلاقية معينة، يبقى الاقتصاد وفيها لهذه المبادئ ذاتها (20). ولكن بعد تجربة أكثر من قرن كامل حسب بن نبي، العلم لا يستطيع وحده بوسائله الخاصة إصلاح ما أفسده هو، ولعلنا نرى أثر هذا الفساد وثقله في التاريخ من خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية.

أ- مفهوم الأخلاق عند مالك بن نبي:

يقصد مالك بن نبي بالأخلاق جانبها الاجتماعي، أي تلك القوة السامية التي تربط الأفراد في مجتمع ما برباط قوي متماسك، بحيث تتآلف

الشعوب وتتآخى الأرواح، فيصبح المجتمع متراس من أجل استمرار حركته وتقدمه نحو الحضارة.

ولقد أهتم بن نبي كثيرا بالأخلاق، فكان يرى أن أساس الثقافة الذي هو تركيب وتآلف عالم الأشخاص (21)، يتم بواسطة عنصر أخلاقي يربط بينهم ويزيد من تفاعلهم واندماجهم، ويصل إلى قانون اجتماعي فيقول: "كل ثقافة يجب أن تتولى الدفاع عن تراثها، وذلك بأن تجمع أولا بين الجسم الاجتماعي والفرد، ذلك التبادل الذي يقوم الأخطاء من حيثما تأتت ومهما يكن مصدرها". (22) والمبدأ الأخلاقي ذو علاقة وثيقة بعالم الأشخاص في علاقته "بالفاعلية" فهو الذي يحدد الصلات داخل عوالم الأشخاص وعلاقتهم بعوالم الثقافة الأخرى، وفاعلية الأفراد والمجتمع تزيد وتنقص بقدر ما يزيد تأثير المبدأ الأخلاقي أو ينقص، والمبدأ لا يؤدي دوره في عالم الأشخاص فقط، بل أيضا من خلال عالم الأشياء باعتباره شرطا أساسيا لأفعال المجتمعات والأفراد، ومنظما لعلاقات الأشخاص تنظيما يناسب المصلحة العامة. ويؤكد بن نبي أن انحلال الحضارات السابقة، سبقه فساد روحي وأخلاقي، وذلك نتيجة انطلاق الغريزة وتحررها من الدين، فكلما ضعفت سلطة الدين، ازداد الفساد الروحي والأخلاقي، وأن ميلاد الحضارة يكون بدخول مبدأ أخلاقي معين (23)، وانحلال الحضارة بتسلسل الفساد الروحي والأخلاقي إلى هذا البناء الاجتماعي الحضاري. ويؤكد أن مستوى أخلاق المجتمع ينخفض كلما كان هناك نقص في الفعالية الاجتماعية للفكرة الدينية.

فالقيم الأخلاقية عند بن نبي ضرورة لبناء المجتمع، فهي التي تنظم سير الحياة وتكفل لكل فرد سعادته وحينما ينتفي الوازع الأخلاقي من المجتمع، فإن تفككا يصيبه، ويهدر من إمكانياته، والتفكك وإهدار الإمكانيات يطعن الحضارة في أساسها، فيحدث فيها التصدع والشقوق. (24)

ويرى بن نبي أن للاستعمار دورا في تراجع الأخلاق، حينما حاول أن يجعل من كل قاعدة صحيحة في البلاد الأخرى شذوذا، فالأخلاق حسبته تحلّف عن ركب المدنية، والدين رجعية، تعيق تقدم العلوم والصناعات، وهكذا يستمر الاستعمار

المباشر وغير المباشر في تزوير المفاهيم، ومن ثم يحاول أن يضع قواعد جديدة تتناسب مع مصالحه، وتحقق أطماعه، إن الاستعمار كلما وضع الترتيبات اللازمة لإفقار المستعمر ماديا، فإنه يتبعها بالترتيبات الخاصة بتلويثه الأخلاقي، فيزيد الإفقار والتلوث معا في اتساع الهوة التي يجعلها أمام "القاصر" حتى لا يستطيع بلوغ رشده أبدا (25) وهنا تزداد المخاطر، حيث لا يكتف الاستعمار بالتهب، وإنما يحاول تحطيم قواعد السلوك والخلق التي تسود المجتمعات التي تحت سيطرته لكي يستبدلها بمفاسد وموبقات تحقق السقوط الأخلاقي.

ب- تأثير الأخلاق على السياسة:

إن السياسة التي لا تقوم على الأخلاق ما هي سوى خراب الأمة (26)، فالسياسة هي خراب للأمة، عندما لا تتضمن المبادئ الأخلاقية، وعندما لا يكون هدفها خدمة الشعب والأمة، بل خداعه واستغلاله عن طريق "البوليتيك". فالسياسة دون أخلاق، تقوم على مصالح عاجلة لا تتسم بالثبات والاستقرار ولا تستند إلى قيم أخلاقية ثابتة، لذلك فهي قاصرة عن تحقيق التجانس بين عمل الفرد وعمل الدولة، مما يؤدي إلى خلل في صلة الدولة بالوسط الاجتماعي، وتدهور العلاقة بينهما فيكون المواطن بمثابة معول هدم للوطن بسبب جريه وراء مصالحه الشخصية، وتكون الدولة بمثابة "بوليس" يقمع كل تحرك أو نشاط يقوم به المواطنون، ويصدق على الدولة حينئذ قول "بورك": "الدولة التي لا تملك الوسائل لمسيرة التغيرات الاجتماعية لا تستطيع أن تحتفظ ببقائها" (27)، بمعنى أن الأمة أو الدولة تؤول إلى الفوضى والخراب على حد قول الشاعر العربي أحمد شوقي (1886-1932):

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت *** فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويعطي مالك بن نبي مثالا عن دور الأخلاق في السياسة، وهو تصريح "كاسترو" رئيس دولة كوبا السابق عندما قال: "إن المصلحة الوطنية والسياسية لا تقوم على الحسابات، وإنما تقوم على المبدأ الأخلاقي" (28).

وأخيرا نستنتج أن العمل السياسي لن يكون ناجحا وناجعا، إذا لم يحقق التجانس بين عمل الدولة وعمل الفرد، القائم على دعائمي الدين والأخلاق.

2-أسس السياسة الناجعة عند مالك بن نبي:

اختلف العلماء اختلافا يَبِينا في تحديد الأسس القوية والعوامل الحاسمة التي تؤدي إلى قيام سياسة ناجعة، وبالتالي اختلفت الأسس والمعايير من مفكر لآخر، ومن مدرسة لأخرى. وبعد دراسة معمقة لكلا الفكرين الغربي والعربي الإسلامي، قام مالك بن نبي بوضع أسس جوهرية لقيام السياسة الناجعة والراشدة، وتتمثل هذه الأسس فيما يلي:

أ-الدين والفاعلية الروحية والأخلاقية:

يرى مالك بن نبي أن الدين يعتبر عاملا أساسيا في قيام السياسات الناجعة، ولهذا فهو يخطئ كل المذاهب المادية التي تجعل من الدين عارضا وليس أساسا (29)ح، وهو يرى أن المرء كلما أوغل في الماضي التاريخي للإنسان سواء في الأحقاب الزاهرة لحضارته أو في المراحل الابتدائية لتطوره الاجتماعي، فإنه سيجد سطورا من الفكرة الدينية (30)، مما يؤكد الأثر الكوني للدين، وأنه القاعدة في جميع التغيرات الإنسانية الكبرى، كما حلل أن سقوط وتدهور المجتمعات كان نتيجة غياب الوظيفة الدينية، فالبناء الاجتماعي والسياسي "لا يقوى على البقاء بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب، بل الروح وحدها هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتقدم، فحيثما فقدت، سقطت الحضارة وانحطت، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوى بتأثير جاذبية الأرض..." (31).

والفكرة الدينية عند بن نبي هي كل ما ينقل فكر الإنسان، وتطلعاته واهتماماته إلى عالم القيم، ويسمو بالنفس إلى المستقبل سواء المستقبل بمعنى الآخرة التي تحدده الأديان أو المستقبل بمعنى المشروع الزماني في المستقبل

الذي يضع الجيل الأول الأساس له، وتتابع الأجيال الأخرى مرحلة البناء (32). فيرى أن أوروبا والغرب بصفة عامة حققت المعجزات في عالم الاكتشافات والعلوم (33)، وهذا ما جعلها تعتقد أن الله اختارها لتستودع مصائر الإنسانية (34)، وقد نجحت في هذا، بحيث حوّلت العالم الإسلامي إلى سوق لاستهلاك منتجاتها، ومع الأسف لم تأخذ الدول العربية والإسلامية، لب النظريات السياسية في أشكال الحكم والديمقراطية، وإنما أخذت منها نفاياتها التي رمتها في سلة المهملات. وبهذا تمكّنت الحضارة الغربية من فرض حضورها على مستوى العالم، إذ استطاعت أن تنشر أفكارها السياسية والاقتصادية، وطرق تفكيرها عبر وسائل الإعلام والاتصالات المختلفة و الزى الأوربي، وظهور الأحزاب العلمانية، ودعوات تحرير المرأة المسلمة، وتيارات التغريب في العالم العربي، فلم يعد الحاكم المسلم، يرى إلا النظام الديمقراطي الغربي كبديل للنظام الشوري الإسلامي، وفي المجال الاقتصادي لم يعد يرى إلا النظام الرأسمالي، والماركسي الاشتراكي سابقا.

فهذه النزعة المادية تحولت إلى نمط ثقافي تربوي يخرج جيلا من الناس تجيد نهب الآخرين والتسلط عليهم، حيث ضاعفت النزعة المادية والكمية شهوة الإنسان إلى المادة بحيث لا يضع نصب عينيه سوى ما يأخذه من المجتمع لا ما يعطيه له، إنه يبحث عن خصمه لا عن رسالته" (35).

ولقد ضعفت الفكرة الدينية عند المسلمين بسبب إشكالية فهم الإسلام عند المسلمين، فمشكلة العلاقات الروحية محلولة عند المسلم، ولكن ما ينقصه هو القيام بعملية انعكاس منطق الفكرة إلى الميدان العملي، ولهذا يقول بن نبي: "إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ولكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل بل يقول كلاما مجردا، بل إنه أكثر من ذلك يبغيض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثرا ويقولون كلاما منطقيا من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط" (36). وهذا ليس معناه أن الوضع الفكري جيد في

الواقع العربي والإسلامي، وأنه محتاج فقط إلى الوسائل والأدوات، فالعرب والمسلمون يملكون طاقات وفيرة بشرية ومادية، لكن الفهم الخاطئ للإسلام جعلهم يحولون الإسلام إلى جانب طقسي عبادي لا دخل له في الشؤون الاجتماعية. ويقول بن نبي في هذا: "إن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل، وإنما في الأفكار، وطالما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكا واضحا، فسيظل داء الشبهة العربية الإسلامية، عضالا، بسبب تخلفها عن ركب العالم المتقدم" (37). فالمسلم يغير خلقه ابتداء من خروجه المسجد، فهو لا يؤثر في وسطه بل الوسط هو الذي يؤثر عليه فيجرده من مثله الأعلى ويهدم مبادئه (38).

ب- دور الإنسان:

يركز بن نبي على دور الإنسان لكي يتمكن العقل العربي والإسلامي من فهم مشكلاته الأساسية، وأن يضع الخطوات الثابتة لكي يدخل التاريخ مرة ثانية بقوة أكبر، خاصة وأن معه تراث ضخم عمره أربعة عشر قرنا وأزيد، وكما يقول أليكسيس كاريل "إن إعادة الإنسان إلى تناسق ذاته الفسيولوجية والعقلية سوف يبذل الدنيا" (39).

إن السياسة الناجعة لا يمكن أن تتحقق إلا بالإنسان المتعقل لفعله، المدرك لوقته والمتفاعل مع التراب، والمتناغم مع التراث، والمتعلق بالمعارف العالمية على السواء، دون أن يتحول إلى زبون يستهلك ولا ينتج (40)، لا أن تجعله السياسة لعبة يتاجر بها تجار الكراسي السياسية، بل تضع الإنسان محور عملها وأساس مشكلتها ومفتاح تقدما. كما يتوجب على السياسة بناء إنسان جديد يمثل إنسان القطيعة بين ما كان وما ينبغي أن يكون، وفي هذا المضممار يقول بن نبي أيضا: "فكل تطور من هذا النوع هو في جوهره عملية تصفية، تصفي الإنسان حتى يصبح الإنسان في صورة المواطن أو صورة- الرفيق-أي الإنسان الذي تخلص من رواسب العبودية ومن نزعات الاستعباد" (41).

ج-دور الثقافة:

إن الثقافة التي ينادي بها بن نبي هي نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة (42)، إنه لا يريد أن تكون الثقافة مجرد تكديس المعلومات، بل عملية تربوية تحدث التغيير النفسي المطلوب في الفرد و المجتمع، فيكتسبان من الصفات الخلقية و القيم الاجتماعية التي تجعل كلا منهما ايجابيا في عمله و حركته، ففي المجال السياسي يكتسب الحاكم الصفات الخلقية والاجتماعية التي تجعله حاكما، عادة ما يبحث عن الخير لشعبه، لا إنسانا جشعا يتخذ من السلطة مطية لتحقيق أهدافه المادية والشيئية، فالثقافة تجعل من الحاكم يبحث عن الأهداف النبيلة والعليا لمصلحة وطنه، وكذلك بالنسبة للمحكوم أي الشعب فتوجهه الثقافة نحو العمل والسعي الجاد و الدؤوب لخدمة الوطن، وتجعله يفهم قيمة الوقت والتراب، فيقدّم عمله بإتقان وفي الوقت المناسب ولا يهدر وقته في أعمال لا تجدي نفعا، كما توجهه لاستغلال أرضه أحسن استغلال بدلا من التبعية والتوجه للغرب.

وكذلك التزام الهوية الثقافية والاجتماعية وبشكل كلي من قبل الأفراد هو الذي يصنع النسيج الوحدوي والاستقرار، ويلغي كل نوازع الشغب ودواعي الفتنة، لذلك عمل ويعمل المستعمرون والأعداء من أجل الغزو الثقافي والاختراق لحصون الأمة الثقافية لأن زعزعة الحصن الثقافي هو الذي يفتح الطريق لتحقيق مؤامراتهم وأطماعهم، وهذا يوصلنا إلى التنبيه الى مخاطر القابلية للوفاة الثقافي المسموم عند بعض أبناء الأمة (43). كما أن النهوض بالسياسة الناجعة والسير بها في طريق الحضارة، يتطلب توجيه العمل حتى تسير جهود الجميع في اتجاه واحد وحتى يكون عمل كل فرد لبنة جديدة في البناء الاجتماعي والسياسي، مهما اختلفت أنواع العلم، إذ المهم أن نعمل بصورة مؤثرة في التاريخ (44)، أن نؤلف بين الجهود حتى نغير من وضع الإنسان المتخلف، ويصبح إنسانا متحضرا يساهم في صنع الحياة وتقدمها.

والعمل لا يخص شريحة دون الأخرى، فالكل يعمل والكل يبذل جهدا سواء الحاكم أو العالم أو التاجر أو المرأة أو المثقف أو الفلاح فكل عضو من أعضاء المجتمع يضع لبنة جديدة في البناء. ويجب على الدولة توفير العمل لجميع شرائح المجتمع إذا كانت تريد الديمومة والاستقرار وعدم حدوث المشكلات والفتن السياسية.

كما يدعو مالك بن نبي إلى توجيه رأس المال حتى لا يكون هذا المال جامدا وغير متحرك أو مجرد ثروة معطلة، وعدم تركه في أيدي فئة قليلة، ومساهمة كل الأفراد مهما كان ما يملكونه ضئيلا في حركة المجتمع ونموه (45).

إن توجيه الثقافة وتوجيه العمل، وتوجيه رأس المال، يحقق الشروط اللازمة للارتفاع بالإنسان إلى المستوى الذي يريده والهدف الذي يريد المجتمع تحقيقه بدافع من عقيدته الدينية. ولكن بث الروح والحياة في هذا العناصر من أجل تحقيق سياسة ناجعة في إطار الحضارة، لابد أن تكون مرتبطة بالفكرة الدينية.

إن نهضة العالم العربي الإسلامي السياسية عند مالك بن نبي قائمة على الإنسان الذي يقيم حياته على أساس التعادل بين الكم والكيف، وبين الروح والمادة، وبين الغاية والسبب، وبين العلم والضمير، وبين الخلق والفن وغيرها من المتناقضات.

3- آفاق التعاون العربي الإسلامي في المجال السياسي حسب مالك بن

نبي:

أ-وضعية العالم العربي الإسلامي في الوقت الحاضر:

إن المجتمع العربي والإسلامي يعيش في سبات عميق ولا يعلم ما يدور حوله من أحداث، وإن علم بها فلا حول له ولا قوة في المشاركة فيها من قريب ولا من بعيد، ليس هذا فقط، بل الأكثر من ذلك أنه كان يعيش فريسة تحت جناحي الاستعمار

الأوروبي الذي أطبق عليه من موريتانيا غربا إلى إندونيسيا شرقا، تحت أسماء مشبوهة من التعاون، الوصاية، الحماية والانتداب إلى الاستعمار المباشر المكشوف، خاصة الاستعمار الفرنسي والبريطاني الذي سيطر تقريبا على العالم الإسلامي كله، واستولى على ثرواته وموارده، واستغل أبناءه أبشع استغلال عرفه التاريخ. فالاستعمار لم يكتف بامتصاص ثروات البلاد واستغلال الأرض والإنسان، بل تجاوز ذلك إلى تدمير الإنسان نفسيا وفكريا وثقافيا، في محاولة لقتل كل مقومات الشخصية الذاتية والتغلغل في النفس والفكر والثقافة الإسلامية (46).

ب-التحديات الداخلية والخارجية التي تواجه التعاون العربي الإسلامي في المجال السياسي:

إن العالم العربي والإسلامي يعاني من تحديات داخلية وخارجية كثيرة، ولا يمكن وضع إستراتيجية سليمة للتنمية والبناء في العالم العربي الإسلامي دون الفهم الموضوعي لهذه التحديات الداخلية والخارجية.

✓ التحديات الداخلية:

رغم محاولات النهوض التي يبذلها العالم العربي والإسلامي ومحاولات التعاون، إلا أن أمامه عوائق عديدة منها: الاستبداد السياسي، ومسألة التخلف.

• الاستبداد السياسي: إن النظم العربية الاستبدادية، رغم ما تدّعيه في دساتيرها من مقولة الحكم الديمقراطي، فهي لا تمت إليه بصلة، لأنها لا تكتسب شرعيتها عن طريق الشعب بواسطة انتخاب نزيه، فالانتخابات العربية معظمها مزورة، لم تحترم فيها حرية الشعب في اختيار قادته وممثليه. فهذه النظم الاستبدادية، زادت من معاناة الشعب العربي الإسلامي، لأنها قطعت الطريق أمامه للقيام بمشاريع سياسته الأكثر ديمقراطية وحضارية والواضحة المعالم. والمجتمعات العربية تعاني الآن من غياب الديمقراطية الصحيحة، وتحكم الأقلية بالأكثرية، وتهميش دور المؤسسات المجتمعية

والمدينة، وصعوبة التّصال في سبيل التعددية الحزبية والسياسية، هذا إضافة إلى هيمنة الزعيم القائد أو الحزب المهيمن وسيطرته على الدولة ومؤسساتها، وكما يسميه بن نبي الوثنية الجديدة. و لقد انتشرت في جميع الدول العربية والإسلامية، الأنظمة بجميع أشكالها الملكية والأميرية والجمهورية معتمدة على القمع السلطوي من أجل استقرارها، وديمومتها، وتحوّلت القوانين إلى مجرد واجهة ديمقراطية لأنظمة أو قوى سياسية ذات نزوع تسلّطي واضح. لذا فعملية التعاون السياسي بين الدول العربية الإسلامية لا تزال ضبابية، بسبب تجاهل المطلب الديمقراطي للشعوب وتغليب شعار الأمن والاستقرار على حساب الممارسة الديمقراطية ومبدأ حكم الشعب للشعب (47).

● التّخلف: يرى مالك أن سبب التّخلف الحاصل هو روح الفردية و"الأنا" التي تعزّز دورها في نفوس بعض الناس وأقول الفكرية الجماعية وحلول بديلها نظرية الجزء، فقامت الدويلات واستعر القتال فحصل الانحطاط والسقوط (48).

وحسب بن نبي أنه لا يمكن للمسلم المعاصر التخلص من التّخلف، والدخول في الحضارة من جديد إلا بالقضاء على مظاهر عصور الانحطاط وبناء إنسان جديد، ويستند في ذلك إلى المبدأ القرآني: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" *

فالحضارة بناء وليس تكديس، ويجب حسب حل مشكلات الإنسان والتراب والوقت، لحل مشكلة التّخلف وذلك بالاستناد إلى الدين الإسلامي. فالعلاقة الروحية بين الله وبين الإنسان، هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وهذه بدورها تربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان (49). فيندفع المجتمع إلى البناء بالجد والتضحية والفعالية.

ويخلص بن نبي إلى أن تخلف العالم الإسلامي مهما كان حتمية حضارية، فإنه ليس معناه استحالة بناء حضاري جديد، لكن لا يتمكن من ذلك إلا بالعودة إلى الفكرة الإسلامية الصحيحة التي كانت وراء ميلاد الحضارة الإسلامية، وبناء الإنسان المسلم المعاصر الفعال (50).

✓ التحديات الخارجية:

إضافة إلى التحديات الداخلية التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي فإنه أيضا يعاني من تحديات خارجية مثل العولمة والتبعية المفروضة عليه من الغرب.

• العولمة: إن العولمة لها عدة أنواع، فهناك العولمة السياسية والعولمة الاقتصادية، والعولمة الثقافية والعولمة الدينية...

فالعولمة السياسية تعني إخضاع الجميع لسياسة القوة العظمى والقطب الأوحده في العالم، وهو الولايات المتحدة الأمريكية، ونلاحظ نتائجها في حرب الخليج، وفي الحروب الأهلية بين شعوب يوغوسلافيا وفي حرب البوسنة والهرسك مع الصرب، وحرب كوسوفو... أما عولمة الاقتصاد، فلها وسائل وأدوات تستطيع التأثير بها والضغط، لتنفيذ غاياتها في العالم العربي والإسلامي، ومنها صندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة الدولية "الجات"، وما تفرّع عنها، وغيرها من مؤسسات الأمم المتحدة، والشركات الكبرى المتعددة الجنسيات، والعبارة للقارات والمحيطات، ودور عولمة الاقتصاد يقوم على استلاب جهود الضعفاء لمصلحة الأقوياء، سواء كانوا أفرادا أم شعوبا أم دولا، فهو اقتصاد غير عادل وغير أخلاقي. أما فيما يخص عولمة الثقافة فيه أشد أنواع العولمة خطرا، وأبعدها أثرا، وهي تعني فرض الثقافة الأمريكية على العالم كله، شرقية وغربية، مسلمة ونصرانية، ووسيلته في ذلك الآليات الجبارة من أجهزة الإعلام والتأثير بالكلمة المقروءة والمسموعة والمرئية، بالصوت والصورة والبت المباشر وشبكة المعلومات العالمية (الانترنت) وغيرها. فلقد أشاعت عولمة الثقافة في المجتمع العربي الإسلامي ثقافة الاستهلاك لما تنتجه الرأسمالية الغربية الأمريكية، مما يؤكل ويشرب ويلبس ويركب، وإشاعة ثقافة الجنس والشذوذ (51). كما تشيع ثقافة التطبيع والتميع أو التكريع والتطويع الذي تريده أمريكا وإسرائيل وكل هذه لاقت أذانا صاغية في الوطن العربي الإسلامي. أما عولمة الدين وذلك عن طريق نشر العقيدة المسيحية في العالم، أو ما يسمى تنصير

العالم، وهو ما تهدف إليه الكنائس المسيحية، وبهذا يفرض الغرب إمبريالية دينية على العالم خاصة العالم العربي الإسلامي، وذلك باستخدام القوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية والتكنولوجية والإعلامية.... الخ لتحويل العالم كله إلى المسيحية، والتبشير في البلاد العربية الإسلامية لم يطمع في تحويل المسلم إلى النصرانية صراحة، وإنما أراد زعزعة إسلاميته والتشكيك في مسلماته.

● التبعية: إن للإنسان الأوروبي أو الغربي بصفة عامة عقدة التفوق والاعتزاز بالنفس مقابل عقدة النقص لدى المسلم، مما أدى إلى إنشاء سلطة غربية على عقل المسلم جعلته يقتنع أنه لا يمكن له التقدم إلا بالتخلص من قيمه وحضارته وثقافته والاندماج في الغرب الرأسمالي روحا وفكرا ونمطا استهلاكيًا (52)، مما جعله تابعا إليه في كل المجالات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها.

إن المأساة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لشعوبنا الإسلامية تكمن في العجز والافتقار الى القدرة الخلافة للإبداع، فكل شيء تقليد للنموذج الغربي، ولم تحاول دول العالم الإسلامي حل مشكلاتها الاقتصادية إلا من خلال النماذج الغربية، ولم تحاول القضاء على التبعية التي هي غارقة فيها، ولن يكون تحقيق هذا إلا بفك الارتباط نهائيا مع النماذج الغربية سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية، وأن تبني تصوراتها وأفكارها النابعة من واقعها وحاجاتها وتقاليدها وقيمتها الحضارية الإسلامية.

ج- رؤية مستقبلية لبناء وحدة سياسية عربية في إطار المبادئ الإسلامية
:كمنويلث إسلامي

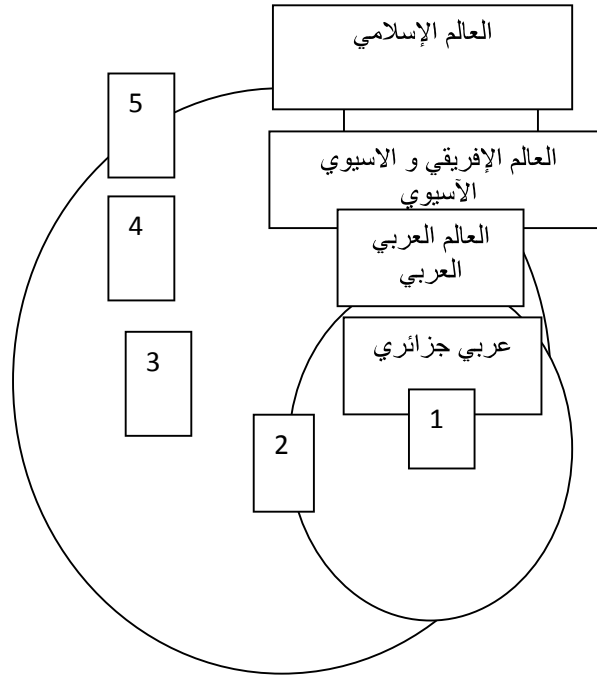
لا يكتف مالك بن بني بعرض مشاكل العالم الإسلامي السياسية والاجتماعية والنفسية والحضارية، بل يقترح أيضا مشروعا خاصا لبناء وحدة

سياسية في إطار المبادئ الإسلامية، تتماشى مع أوضاعه، وهذه الفكرة هي مشروع "كمنويلث إسلامي"، استوحاها من نموذج الكمنويلث البريطاني. لقد رأى مالك بن نبي أن العالم الإسلامي يعيش تحت وطأة أزمات خانقة، كالثورات والنزاعات الطائفية والعرقية، والمذهبية، وإضافة إلى أنه منهوب من الطرفين الاشتراكي والرأسمالي، لهذا يرى أنه حان له أن يصحو من نومه وأن يرسم لنفسه موقعا في خريطة العالم المعاصر. إن فكرة "كمنويلث إسلامي" هي بحث يرمي إلى تخطيط وحدة جغرافية سياسية معينة، وهذا إلى جانب احتفاظه بوحدة الروحية التي تعد له عاملا جامعاً أساسياً ومبدأً موحداً يجب أن يطبق في أي محاولة لتخطيطه (53)، ويستند هنا إلى الإمام محمد أبو زهرة في كتابه الوحدة الإسلامية حين يؤكد أن الوحدة السياسية الإسلامية للعالم الإسلامي تقوم على عامل أساسي هو الوحدة الروحية ويقول: "تقوم الوحدة الإسلامية على وحدة الدين والدين عقيدة وعبادة وفضيلة وتعاون على البر والتقوى والعدل..." (54). ويرى بن نبي أن الخطوط العريضة للكمنويلث الإسلامي تتمثل في عدة جوانب، الجانب الجغرافي السياسي وهو أن يستشعر المسلم أنه يعيش في مجتمع غير مخطط، مقارنة بالعالم الآخر المخطط، كمحور واشنطن-موسكو. أما الجانب النفسي أن يرى العالم الإسلامي أنه يحمل في طياته بذور الثورة، أما الجانب الفني فالعالم الإسلامي نجده إزاء عوالم إسلامية عديدة منها الإفريقي والعربي، والإيراني، والماليزي، والصيني المنغولي. ومن أجل تخطيط العالم الإسلامي، لابد من عمليتين: عملية مكاملة وعملية تبويب، فالمكاملة هي الوحدة الروحية بين الشعوب الإسلامية التي تسهل عملية بناء الوحدة السياسية الإسلامية، والتبويب هو تقسيم العالم الإسلامي إلى عوالم إسلامية، لذلك يعتبر الكمنويلث كاتحاد فيدرالي بين العوالم الإسلامية يترأسه مؤتمر إسلامي يقوم بدور الهيئة المنفذة لهذا الاتحاد.

❖ وظيفة الكمنويلث الإسلامي:

حسب مالك بن نبي، فإن للكمنويلث الإسلامي وظائف عدة هي:

أ-مناطق الحضور: إن فكرة الكومنويلث الإسلامي هي تمديدا في المنظر الذي يتكون فيه الإنسان المسلم ،وبالتالي امتدادا في مستواه الشخصي (55).أي أن وعي المسلم يتكون في وسط معين من الدوائر التي نستطيع تخطيطها في اعتبارنا لها بالنسبة إلى الفرد (عربي جزائري) لا يتعدى نطاق حضور الدائرة المشار إليها بالرقم 1 (56).



إن انتقال الإنسان المسلم من دائرة موطنه إلى دائرة العالم الإسلامي، حيث تحتل فكرة الكمنويلث الإسلامي مكانها، يمثل اتجاه اكتماله الطبيعي في عصر المساحات الكبيرة المخططة. (57)

ب-الشهادة: إن تخطيط الدوائر أي مناطق الحضور، تناولت مشكلة الإنسان المسلم باعتباره ممثلاً لأفعاله، أو مؤلفاً لها، ولكن القرآن يعنيه لدور آخر، هو دور الشاهد أو الشاهد الأمين لأعمال الآخرين، يقول الله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا"(58) و"الشاهد" في أساسه "الحاضر" في عالم الآخرين، فالمسلم مجبر على الحياة في اتصال وثيق بأكبر عدد من الذوات البشرية ومشاكلها كذلك، ودوره هنا ليس سلبي بل يؤثر على الأشياء، وعلى أعمال الآخرين. فرسالة المسلم في عالم الآخرين، لا تتمثل في ملاحظة الوقائع، ولكن في تبديل مجرى الأحداث، يردّها إلى اتجاه الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا (59).

ج-الرسالة: في الوقت الذي يكون فيه شاهد يتعين عليه أن يصبح "رسولا" أي صاحب رسالة يبلغها للآخرين، حيث يستند إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع حينما قال: "ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب"، وهذه رسالة لكل مسلم حاضر إزاء الغائبين، والحاضر لا يمثل شخصه وجيله بل كل الأجيال التي تأتي بعده (60).

خلاصة واستنتاجات: إن السياسة الناجعة هي التي تتأسس اعتمادا على المرجعيات الفكرية ومخابر الدراسات الإستراتيجية، والمؤسسات العلمية، وهيئات البحث المختلفة، وأنه على الدولة حتى تقيم سياسة ناجحة بعيدة عن البوليتيك يجب أن تحددها بوصفها علما وأن تدافع عنها بوضع أجهزة حماية ووقاية ورقابة صارمة حتى لا تصير بولتيكا. حيث وضع مالك بن نبي أسسا جوهرية لقيامها، أهمها الدين والفاعلية الروحية والأخلاقية، والإنسان و الثقافة . إن العالم العربي الإسلامي اليوم يحاول بذل الجهود لبناء سياسة داخلية وخارجية ناجعة وموحدة، لكنها بطيئة جدا، بسبب التحديات التي يواجهها داخليا وخارجيا، من استبداد وتخلف وعولمة وتبعية. ومن أجل تجاوز هذه التحديات،

اقترح مالك بن نبي مشروعاً للوحدة السياسية العربية في إطار المبادئ الإسلامية، ويتمثل هذا المشروع في فكرة الكومنويلث الإسلامي الذي ترمي إلى تخطيط وحدة جغرافية سياسية، إلى جانب الاحتفاظ بالوحدة الروحية التي تعد مبدءاً موحداً له.

وتكمن وظيفة هذا الكومنويلث الإسلامي في جعل المسلم يقوم بدور الشهادة أي الشاهد الأمين لأعمال الآخرين، وأيضاً دور الرسالة، فرسالة المسلم لا تتمثل في ملاحظة الوقائع وإنما تبديل مجرى الأحداث بردها إلى اتجاه الخير، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وهذه الرسالة هي خاصة بكل مسلم حاضر إزاء الآخرين.

الهوامش:

¹ - مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، ط1، بيروت: لبنان: دار الفكر المعاصر، 2002، ص. 82.

² - المرجع نفسه، ص. 82.

³ - عبد الله العويس، "مالك بن نبي حياته وفكره"، رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية الشريعة، قسم الثقافة الإسلامية، 1404هـ-1405هـ، ص. 135.

⁴ - المرجع نفسه، ص. 315.

⁵ - المرجع نفسه، ص. 82.

⁶ - المرجع نفسه، ص. 83.

⁷ - المرجع نفسه، ص. 84.

⁸ - نورة خالد السعد، الإنسان في معادلة مالك بن نبي، مجلة الفيصل، العدد 196، شوال 1413 هـ أبريل 1993، ص. 113.

⁹ - عبد الله العويس، مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص. 287.

¹⁰ - نورة خالد السعد، مرجع سابق، ص. 111.

¹¹ - مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، مرجع سابق، ص. 88.

- 12 - المرجع نفسه، ص. 88.
- 13 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ط 5، دمشق: لبنان: دار الفكر، 2000، ص. 67.
- 14 - منصور بن لرنب، أي مستقبل لعلم السياسة في العالم الإسلامي العربي، المجلة الجزائرية للعلوم السياسية والإعلامية، العدد الأول، شتاء 2001 - 2002، ص. 190.
- 15 - المرجع نفسه، ص. 190.
- 16 - مالك بن نبي، بين الرشاد والتبعية، مرجع سابق، ص. 190.
- 17 - منصور بن لرنب، أي مستقبل لعلم السياسة في العالم الإسلامي العربي، مرجع سابق، ص. 190-191.
- 18 - مالك بن نبي، بين الرشاد والتبعية، مرجع سابق، ص. 73.
- 19 - المرجع نفسه، ص. 73.
- 20 - المرجع نفسه، ص. 75.
- 21 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص. 60-61.
- 22 - عبد الطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، الجزائر: دار الفرقان، 2002، ص. 135.
- 23 - مالك بن نبي، شروط النهضة، ط 4 ترجمة: عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، الجزائر: دار الفكر، 1987، ص. 78.
- 24 - مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ، ص. 26-27.
- 25 - مالك بن نبي، في مهبط الريح، ط 4، دمشق: لبنان: دار الفكر، 2002، ص. 44.
- 26 - مالك بن نبي، بين الرشاد والتبعية، مرجع سابق، ص. 69.
- 27 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص. 34.
- 28 - مالك بن نبي، بين الرشاد والتبعية، مرجع سابق، ص. 22.
- 29 - مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة: الطيب الشريف، الجزائر: مكتبة النهضة، بدون تاريخ، ص. 81.
- 30 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1987، ص. 68.
- 31 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر العربي، ب، د، ت، ص. 26-27.

- 32 - العوسي عبد الله، مالك بن نبي حياته وفكره، مرجع سابق، ص 286.
- 33 - المرجع نفسه، ص 39.
- 34 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ص 42-43.
- 35 - المرجع نفسه، ص 168.
- 36 - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 74..
- 37 - المرجع نفسه، ص 115.
- 38 - مالك بن نبي، ميلاد المجتمع، مرجع سابق، ص ص 104-105.
- 39 - كاريل ألكسيس، الإنسان ذلك المجهول، ترجمة "دمشق أسعد فريد، بيروت: مؤسسة المعارف، ط 2، 1977، ص 358.
- 40 - عبد القادر بوعرفة، الإنسان المستقبلي، الجزائر: دار الغرب للنشر، ص 8.
- 41 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، الجزائر، دمشق: دار الفكر، بدون تاريخ، ص 140.
- 42 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 78.
- 43 - أسعد السحمراني، مالك بن نبي ومعاييره للتنوع الثقافي ومشكلات الحضارة، الجزائر: المجلس الإسلامي الأعلى الملتقى الدولي حول فكر مالك بن نبي، أيام 18-19-20 أكتوبر 2003.
- 44 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص ص 114-115.
- 45 - محمد عبد السلام الجفاني، مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي، ليبيا - تونس: الدار العربية للكتاب، 1987، ص 178.
- 46 - الطيب بن إبراهيم، مالك بن نبي وابن خلدون: مواقف مشتركة، الجزائر: دار مدني، 2002، ص 34.
- 47 - مسعود ظاهر، الفكر النهضوي العربي، وآفاقه المستقبلية في ظل التغيرات العالمية، بيروت: الجامعة اللبنانية، ب ت، ص 3.
- 48 - أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ط 2، بيروت: دار النفائس، 1986، ص 82.
- * القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية 11.
- 49 - مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 52.
- 50 - رابح لونيسي، البديل الحضاري: دراسة مستقبلية لمواجهة الكارثة التي تهددنا، ب م ن: دار المعرفة، ب ت، ن، ص 65.

- 51 - يوسف القرضاوي، المسلمون والعولمة، بور سعيد : دار التوزيع للنشر الاسلامية ، 2000 ، ص 47.
- 52 - رايح لونيسي ، مرجع سابق ، ص. 67
- 53 - مالك بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، ترجمة: الطيب الشريف ، ط2، دمشق الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، 1990، ص. 14
- 54 - محمد أبو زهرة، الوحدة الإسلامية، القاهرة: دار الفكر العربي، د ت ص 248.
- 55 - مالك بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، مرجع سابق ، ص 67.
- 56 - المرجع نفسه ، ص. 68
- 57 - المرجع نفسه ، ص. 68
- 58 - القرآن الكريم ، سورة البقرة، الآيتان ، 143 ، 142
- 59 - مالك بن نبي، فكرة كومنويلث إسلامي، مرجع سابق ، ص 72
- 60 - المرجع نفسه ، ص 74.

